﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

وللتوبة شروط يجب مراعاتها ، وهي : أن تُقلع عن الذنب الذي تقع فيه ، وأن تندم على ما بدر منك ، وأنْ تنوي وتعزم عدم العودة إليه مرة أخرى . وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدْتَ فلن تُقْبلَ منك التوبة ، فقد تتعرض لظروف تُوقعك في الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العَوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قَصْد ودون إصرار . وإلاَّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقُلْت : أذنب ثم أتوب ، فمن يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوبَ ؟ إذن : فبادر بها قبل فَوات أوانها .

هذه - إذن - شروط التوبة إنْ كانت في أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفّر لها شرط آخر وهو رَدُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت ترد ، أو التبرع بها في وجوه الخير على أنْ ينويَ ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] معنى : وآمن بعد أنْ تاب ، تعني أن ما أحدثه من معصية خدش إيمانه ، فيحتاج إلى تجديده . وهذا واضح في الحديث الشريف :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

فساعةَ مباشرة هذه المعاصي تنتفي عن الإنسان صفة الإيمان ؛

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

لأن إيمانه غاب في هذه اللحظة ؛ لأنه لو استحضر الإيمان وما يلزمه من عقوبات الدنيا والآخرة ما وقع في هذه المعاصي .

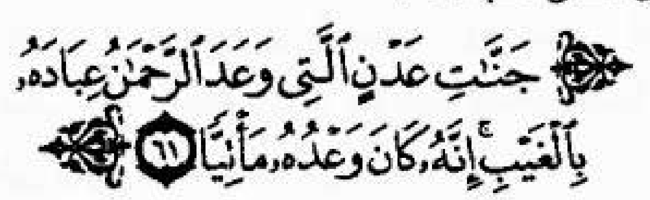
لذلك قال : (وآمَنَ) أي : جدَّد إيمانه ، وأعاده بعد توبته ، ثم ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٦٠) ﴾ [مريم] ليصلح به ما أفسده بفعل المعاصي .

والنتيجة : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾ [مريم] وفي موضع آخر ، كان جزاء مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فلماذا كُلُّ هذا الكرم من الله تعالى لأهل المعاصي الذين تابوا ؟ قالوا : لأن الذي ألِفَ الشهوة واعتاد المعصية ، وأدرك لذَّته فيها يحتاج إلى مجهود كبير في مجاهدة نفسه وكَبْحها ، على خلاف مَنْ لم يتعوّد عليها ، لذلك احتاج العاصون إلى حافز يدفعهم ليعودوا إلى ساحة ربهم .

لذلك قال سبحانه : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. (٦٠) ﴾ [مريم] دون أنْ يُعيَّروا بما فعلوه ؛ لأنهم صَدَقُوا التوبة إلى الله ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾ [مريم] وبقدر ما تكون التوبة صادقة ، والندم عليها عظيماً ، وبقدر ما تلوم نفسك ، وتسكب الدمْع على معصيتك بقدر ما يكون لك من الأجر والثواب ، وبقدر ما تُبدَّل سيئاتك حسناتٍ . وكُلُّ هذا بفضل الله وبرحمته .

ثم يقول الحق سبحانه :



قوله : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٦١)﴾ [مريم] أى : إقامة دائمة ؛ لأنك قد تجد فى الدنيا جنات ، وتجد أسباب النعيم ، لكنه نعيم زائل ، إمّا أنْ تتركه أو يتركك . إذن : فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له .

وجنات عَدْن ليست هى مساكن أهل الجنة ، بل هى بساتين عمومية يتمتع بها الجميع ، بدليل أن الله تعالى عطف عليها فى آية أخرى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبةً) فى قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢)﴾ [التوبة]

وقوله : ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١)﴾ [مريم] والوعْد : إخبار بخير قبل أوانه ؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير ، وضدّه الوعيد : إخبار بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المتوعد ، ويتفادى الوقوع فى أسبابه .

واختار هنا اسم الرحمن ليُطمئنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وَعْداً وَفَى . وقد وعدنا الله تعالى فى قرآنه فآمنّا بوعده غيْباً ﴿وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١)﴾ [مريم]

وحجة الإيمانَ بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذى نراه الآن ، فالكون الذى نشاهده قد خُلق على هيئة مُهندسة هندسةً لا يوجد أبدعُ منها ، فالذى خلق لنا هذا الكون العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم فى الآخرة ، فلا بُدَّ أن نُصدِّق ، ونأخذ من المشاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنّا ؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً ثقةً منّا فى قدرته تعالى التى رأينا طَرَفاً منها فى الدنيا .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم] فما دام الرحمن - تبارك وتعالى - هو الذى وعد ، فلا بُدَّ أن يكون وعدُه (مَأْتِياً) أى : مُحقّقاً وواقعاً لا شكَّ فيه ، ووعْده تعالى لا يتخلَّف و (مَأْتِياً) أى : نأتيه نحن ، فهى اسم مفعول .

وبعض العلماء[1] يرى أن (مَأتياً) بمعنى آتياً ، فجاء باسم المفعول ، وأراد اسم الفاعل ، لكن المعنى هنا واضح لا يحتاج إلى هذا التأويل ؛ لأن وعد الله تعالى مُحقَّق ، والموعود به ثابت فى مكانه ، والماهر هو الذى يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه .

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة فى الجنة :

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾

اللغو : هو الكلام الفُضولى الذى لا فائدة منه ، فهو يضيع الوقت ويُهْدِر طاقة المتكلم وطاقة المستمع ، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له .

والكلام هنا عن الآخرة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] فإن كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً فى الدنيا فلا مجالَ للغو فى الآخرة . ثم يستثنى من عدم السماع ﴿ إِلاَّ سَلامًا .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] والسلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس]

(١) قاله القتبى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٩٧) : [« مأتياً » بمعنى آتٍ ، فهو مفعول بمعنى فاعل] .

وقد يُرَادُ بالسلام السلامة من الآفات التى عاينوها فى الدنيا ، وهم فى الآخرة سالمون منها ، فلا عاهة ولا مرضَ ولا كَدَّ ولا نصبَ . لكن نرجح هنا المعنى الأول أى : التحية ، لأن السلام فى الآية مما يُسْمَع(1) .

فإنْ قُلْتَ : فكيف يستثنى السلام من اللَّغْو ؟ نقول : من أساليب اللغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كأن نقول : لا عيبَ فى فلان إلا أنه شجاع ، وكنت تنتظر أنْ نستثني من العيب عَيْباً ، لكن المعنى هنا : إنْ عددتَ الشجاعة عيباً ، ففى هذا الشخص عَيْب ، فقد نظرنا فى هذا الشخص فلم نجد به عَيْباً ، إلا إذا ارتكبنا مُحَالاً وعددنا الشجاعة عيباً . وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول الشاعر :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ(2) الكَتَائِبِ(3)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [مريم] لم يقُل الحق سبحانه وتعالى : وعلينا رزقهم ، بل : ولهم رزقهم : أى أنه أمر قد تقرَّر لهم وخُصِّص لهم ، فهو أمر مفروغ منه . والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وهو فى الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير فى الدنيا .

ومن رحمة الله تعالى بعباده من أهل الجنة أنْ نزعَ ما فى

---

(1) قال القرطبي في تفسيره (٤٢٩٨/٦) : « السلام اسم جامع للخير ، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون » وقال مقاتل وغيره : « يعنى سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملك عليهم » .

(2) القراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف . [لسان العرب ـ مادة : قرع] .

(3) ذكره ابن منظور في اللسان قال : « فى حديث عبد الملك ، وذكر سيف الزبير : بهن فلول من قراع الكتائب . أى : قتال الجيوش ومحاربتها » .

صدورهم من غلٍّ ومن حسد ومن حقد ، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه ، ولا يشتهى من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته ، فإنْ رأى مَنْ هو أفضل منه درجةً لا يجد فى نفسه غلاً منه ، أو حِقْداً عليه ؛ لأن موجب الغِلّ فى الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضل منك .

أما فى الآخرة فسوف ترى هذه المسألة بمنظار آخر ، منظار النفس الصافية التى لا تعرف الغلّ ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر]

فإنْ رأيت مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول : إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم ، فقد كان يجاهد نفسه وهواه فى الدنيا . ويكفى فى وَصْف ما فى الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى : ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١)﴾ [الزخرف]

وقول النبى ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

إذن : ففى الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا ؛ لذلك ليس فى لغتنا ألفاظ تُعبِّر عن هذا النعيم ؛ لأنك تضع فى اللغة اللفظ الذى أدركتَ معناه ، وفى الجنة أشياء لا تدركها ولا عِلْمَ لك بها ؛ لذلك حينما يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يصفَ لنا نعيم الجنة يصفه بما نعرف من نعيم الدنيا : نخل وفاكهة ورمانَ ولحم طير وريحان .

ويقول : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد]

مع الفارق بين هذه الأشياء فى الدنيا والآخرة . ويكفى أن تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سوء فى طعمها ورائحتها واغتيالها للعقل ، وبين خمر الآخرة التى نفى الله عنها السوء ، فقال : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[1] (٤٧)﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)﴾ [مريم] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرة وعشياً ، وليس فى الجنة وقت لا بُكْرة ولا عَشياً ، لا لَيْل ولا نهار ؟ نقول : إن الحق - تبارك وتعالى - يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، وما نعرف نحن من مقاييس فى الدنيا ، وإلاّ فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت ، كما قال سبحانه : ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..(٣٥)﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾

قوله : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ .. (٦٣)﴾ [مريم] أى : التى يعطينا صورة لها هى : ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾ [مريم] أى : يرثونها ، فهل كان فى الجنة أحد قبل هؤلاء ، فَهُم يرثونه ؟

الحق - تبارك وتعالى - قبل أن يخلق الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره ، ومَنْ سيكفر باختياره ، علم مَنْ سيطيع ومَنْ

---

(١) لا فيها غول : أى لا تغتال العقل مثل خمر الدنيا . [القاموس القويم ٢/٦٣] . ولا هم عنها ينزفون : أى لا يُصرفون عنها وقد غابت عقولهم . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

سيعصى ، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شىء ، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى ، إلا أنه تعالى أعدَّ الجنة لتسع جميع الخَلْق إنْ أطاعوا ، وأعدَّ النار لتسع جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا ، فلن يكون هناك إذن زحام ولا أزمة إسكان ، إنْ دخل الناس جميعاً الجنة ، أو دخلوا جميعاً النار .

إذن : حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ ، أين تذهب أماكنهم التى أُعدَّتْ لهم فى الجنة ؟ تذهب إلى أهل الجنة ، فيرثونها بعد أنْ حُرِم منها هؤلاء .

ثم يقول رب العزة سبحانه[1] :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق إلى موضوع آخر ، فبعد أنْ تحدَّث عن الجنة وأهلها عرض لأمر حدث لرسول الله ﷺ ، وهو ما يحدث له حين ينزل عليه الوحى ، وقلنا : إن الوحى ينزل بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو ملَكٌ ، على محمد ﷺ وهو بشر .

ولقاء جبريل بقانون ملكيته بمحمد ﷺ بقانون بشريته لا يمكن أن يتم إلاَّ بتقارب هذيْن الجنسين وعملية تغيير لابُدَّ أنْ تطرأ على أحدهما ، إما أن ينزل الملَكُ على صورة بشرية ، وإما أنْ يرتفع

(١) **سبب نزول الآية :** أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢١٨ ، ٤٧٣١ ، ٧٤٥٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت الآية : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم] ، وكذلك أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٥٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

ببشرية الرسول إلى درجة تقرب من الملَك ليأخذ عنه ، وذلك ما كان يحدث لرسول الله حين يأتيه الوحى .

وقد وصف النبى ﷺ هذا التغيير فقال : « ... فغطَّنى حتى بلغ منى الجهْد ... »[1] وكان ﷺ يتفصَّدُ[2] جبينه عرقاً لما يحدث فى جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يُسرَّى عنه تذهب هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة ، وكان يجلس بجوار رسول الله ، والرسول ﷺ يضع رُكْبته على رُكْبته ، فلما نزل على رسول الله الوحى قال الصحابى : شعرتُ برُكْبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحى وهو على دابة كانت الدابة تئط أى : تنخ من ثقَل الوحى[3] ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [المزمل]

إذن : كان النبى ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ويشقُّ عليه ، حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضى الله عنها يقول : « زَمِّلونى زَمِّلونى » أو « دَثِّرونى دَثِّرونى »[4] كأن به حمى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحى أولاً .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى . قال ابن حجر فى فتح البارى (١/ ٢٤) .

(٢) قالت عائشة رضى الله عنه : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه . وإن جبينه ليتفصَّدُ عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/ ٢١) « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة فى حديث نزول جبريل عليه السلام على محمد ﷺ فى الغار .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الوحى يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحى ، فيتشوق إليه من جديد ، كما يشتاق الإنسان لمكانٍ يحبه دونه الأشواك ومصاعب الطريق ، فالحب للشيء يحدث عملية كالتخدير ، فلا تشعر فى سبيله بالتعب .

وقلنا : لما فتر الوحى عن رسول الله شمت فيه الكفار وقالوا : إن رَبَّ محمد قد قلاه يعنى : أبغضه وتركه .

وهذا القول دليل على غبائهم وحماقتهم ، كيف وقد كانوا بالأمس يقولون عنه : ساحر وكذاب ؟ ففى البغض يتذكرون أن له رباً منع عنه الوحى ، وحين دعاهم إلى الإيمان بهذا الرب قالوا : من أين جاء بهذا الكلام ؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يخاطب رسوله ﷺ قائلاً : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح] إذن : كانت مسألة الوحى شاقة على رسول الله .

فأراد الحق سبحانه أن يعطى هؤلاء درساً من خلال درس كونىّ مشاهد يشهد به المؤمن والكافر ، هذا الأمر الكونىّ هو الزمن ، وهو ينقسم إلى ليل ونهار ، ولكل منهما مهمته التى خلقه الله من أجلها ، كما قال سبحانه : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل]

فإياك أنْ تُغيِّر مهمة الليل إلى النهار ، أو مهمة النهار إلى الليل .

ثم يرد عليهم قائلاً : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[1] ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى]

(١) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شىء فيه [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

والمعنى : إنْ كان النهار لحركة الحياة واستبقائها ، والليل للراحة والسكون ، فهما آيتان متكاملتان لا مُتضادتان ، وليس معنى أن يأتى الليل بسكونه أن النهار لن يأتى من بعده ، بل سيأتى نهار آخر ، وستستمر حركة الحياة .

وكذلك الأمر إنْ فترَ الوحى عن رسول الله ، فلا تظنوا أنه انقطع إلى غير رَجْعة ، بل هى فترة ليرتاح فيها رسول الله ، كالليل الذى ترتاحون فيه من عناء العمل فى النهار ، ومن هنا كانت الحكمة فى أنْ يُقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى على ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى]

ونلحظ فى هذا التعبير دقّة الإعجاز فى أداء القرآن ، حيث قال : ﴿مَا وَدَّعَكَ .. ③﴾ [الضحى] بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع يكون لمَنْ تحب ولمَنْ تكره ، أما فى القِلَى فلم يقُلْ : قَلاَك . لأن القِلَى لا يكون إلا لمَنْ تكره .

ومعنى : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④﴾ [الضحى] الآخرة أى : الفترة الأخيرة من نزول الوحى خَيْر لك من الفترة الأولى ؛ لأنها ستكون أوسع ، وستأتيك بلا تَعَب ولا مشقة ، وفعلاً نزلت جمهرة القرآن بعد ذلك فى يُسْر على رسول الله ﷺ[1] .

وهكذا كان الأمر فى الآية التى نحن بصددها : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ⑥④﴾ [مريم] فيقال : إنها نزلت حينما قال الكفار : إن ربَّ محمد قد قلاه ، أو أنها نزلت بعد أن سأل كفار مكة الأسئلة

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧٤٣٣/١٠) : « روى سلمة عن ابن إسحاق : أى ما عندى فى مرجعك إلىّ يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا ، وقال ابن عباس : أرى النبى ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده فسُرّ بذلك ، فنزل جبريل بقوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④﴾ [الضحى] .

الثلاثة التى تحدثنا عنها فى سورة الكهف[1] . وأن رسول الله ﷺ قال لهم : « سأخبركم غداً » لكن الوحى لم يأته مدة خمسة عشر يوماً ، فشقَّ ذلك عليه وحزنَ له فنزلت : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : الملائكة لا تنزل إلا بأمر ، ولا تغيب إلا بأمر .

ثم يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم]

قوله تعالى : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : الذى أمامنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : فى الخلف ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ..﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : ما بين الأمام والخلف ، فماذا بين الأمام والخلف ؟ ليس بين الأمام والخلف إلا أنت . فسبحانه وتعالى المالك ، الذى له الملك والمملوك ، وله المكان والمكين ، وله الزمان والزمين .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] وهل يرسل الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسولاً ، ثم ينساه هكذا دون إمداد وتأييد ؟ فسبحانه تنزَّه عن الغفلة وعن النسيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

أولاً : ما علاقة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] بقوله تعالى فى هذه الآية : ﴿رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴿٦٥﴾﴾ [مريم] ؟

---

(١) قاله مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي فيما نقله عنهم القرطبي في تفسيره (٦/٤٣٠٠) وفيه أن النبي ﷺ قال لجبريل « أبطأت عليَّ حتى ساء ظني واشتقت إليك » فقال جبريل : إني كنت أشوق ، ولكني عبد مأمور إذا بُعثت نزلت ، وإذا حُبست احتبست .

قالوا : لأن هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه ، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائم بقيومية الله تعالى عليه ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. (٤١)﴾ [فاطر]

فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا تأخذه سنة ولا نوم . فما دام الأمر كذلك ، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل وبه يقوم الكون . فهو ـ إذن ـ يستحق العبادة والطاعة فيما أمر ، وقد أعطاك قبل أن يُكلِّفك عطاء لا تستطيع أنت أن تفعله لنفسك ، ثم تركك تربع فى هذا النعيم خمس عشرة سنة دون أنْ يُكلِّفك بشيء من العبادات .

لذلك هنا يقول تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥)﴾ [مريم] وقد أكَّد القرآن الكريم فى آيات كثيرة مسألة الوحدانية ، وأنه ربٌّ واحد فقال : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٦٥)﴾ [مريم]

وقال : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة]

وقال : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦)﴾ [الشعراء]

لأن القدماء ، ومنهم ـ مثلاً ـ قدماء المصريين كانوا يجعلون رباً للسماء ، ورباً للأرض ، ورباً للجو ، ورباً للأموات ، ورباً للزرع .. الخ وما دام هو سبحانه رب كل شيء فقد رتب العبادة على الربوبية . والعبادة : طاعة معبود فيما أمر وفيما نهى ، وكيف لا نطيع الله ونحن خَلْقه وصَنْعته ، ونأكل رزقه ، ونتقلب فى نعمه ؟ وفى ريفنا يقول الرجل لولده المتمرد عليه : (مَنْ يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ولا بُدَّ أن نعلم أن الله تعالى له الكمال المطلق قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية . فإن قلتَ : فلماذا - إذن - يُكلِّف الخَلْق بالأمر والنهى ؟ نقول : كلَّف الله الخَلْق لتستمرَ حركة الحياة وتتساند الجهود ولا تتصادم ، فيحدث فى حياتهم الارتقاء ويسعدوا بها ، إنما لو تركهم وأهواءهم لَفسدتِ الحياة ، فأنت تبنى وغيرك يهدم .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

إذن : التشريعات جُعلَتْ لصالحنا نحن : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥) ﴾ [مريم] لأن العبادة فيها مشقة ، فلا بُدَّ لها من صبر ؛ لأنها تأمرك بأشياء يشقُّ عليك أنْ تفعلها ، وينهاك عَنْ أشياء يشقُّ عليك أنْ تتركها لأنك ألِفْتها .

والصبر يكون منا جميعاً ، يصبر كُلٌّ منَّا على الآخر ؛ لأننا أبناء أغيار ، فإن صبرتَ على الأذى صبرَ الناس عليك إنْ حدث منك إيذاء لهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

والحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّمنا : إن أذنب أحد فى حقِّك ، أو أساء إليك فاغفر له كما تحب أن أغفر لك ذنبك ، وأعفوَ عن سيئتك .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ[1] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ[2] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

ولا تظن أن صبرك على أذى الآخرين أو غفرانك لهم تطوُّع من عندك ؛ لأنه لن يضيع عليك عند الله ، وستُرَدُّ لك في سيئة تُغفَر لك . حتى مَنْ فُضِح مثلاً أو ادُّعى عليه ظُلْماً لا يضيعها الله ، بل يدّخرها له في فضيحة سترها عليه ، فمَنْ فُضِح بما لم يفعل ، سُتر عليه ما فعل .

وقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] ؟ سبق أن تكلمنا في معنى (السَّمِيّ) وقد اختلف العلماء في معناها ، قالوا : السَّمِيُّ : الذي يُساميك[3] ، أي : أنت تسمو وهو يسمو عليك ، أو السَّمِيّ : النظير والمثيل .

والحق سبحانه وتعالى ليس له سميٌّ يُساميه في صفات الكمال ، وليس له نظير أو مثيل أو شبيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

---

(١) قال أبو عبيد : لا يأتل هو من ألوتُ أي قصرت . وقال الفراء : الائتلاء الحلف . [لسان العرب ـ مادة : ألا] .

(٢) نزلت هذه الآية في قصة أبي بكر الصديق ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان مسطح من المهاجرين البدريين المساكين ، وكان أبو بكر ينفق عليه لمسكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الإفك وقال مسطح في عائشة ابنة أبي بكر وزوجة رسول الله ﷺ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً ، فجاء مسطح فاعتذر . وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول فقال له أبو بكر : لقد ضحكتَ وشاركتَ فيما قيل ، ومر على يمينه ، فنزلت الآية فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . من تفسير القرطبي (٤٧٤٢/٦) بتصرف .

(٣) قاله مجاهد . وقال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولداً أي : نظيراً أو مثلاً ، أو شبيهاً . [القرطبي (٤٣٠١/٦)] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ [الإخلاص]

وللسميِّ معنى آخر أوضحناه فى قصة يحيى ، حيث قال تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾ [مريم] أى : لم يسبق أنْ تسمَّى أحد بهذا الاسم . وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يتسمَّ أحدٌ باسمه ، لا قبل هذه الآية ، ولا بعد أنْ أطلقها رسول الله تحدّياً بين الكفار والملاحدة الذين يتجرؤون على الله . فلماذا لم يجرؤ أحد من هؤلاء أنْ يُسمى ولده الله ؟

الحقيقة أن هؤلاء وإنْ كانوا كفاراً وملاحدة إلا أنهم فى قرارة أنفسهم يؤمنون بالله ، ويعترفون بوجوده ، ويخافون من عاقبة هذه التسمية ، ولا يأمنون أنْ يصيبهم السوء بسببها .

إذن : لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد عليها ؛ لأن الله تعالى قالها وأعلنها تحدياً ، وإذا قال الله تعالى ، ملَكَ اختيار الخَلْق ، وعلم أنهم لن يجرؤوا على هذه الفعلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ ﴾

ما المراد بالإنسان ؟ الإنسان تُطلق ويُراد بها عموم أى إنسان مثل : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ ﴾ [المعارج] ويُراد بها خصوصية لبعض الناس ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ۝٥٤ ﴾ [النساء] فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ[1] .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٥١٣) : « يعنى بذلك حسدهم النبى ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل » . وقال عكرمة : الناس فى هذا الموضع النبى ﷺ خاصة . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٦٦) .

أو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] فالمراد : ناسٌ مخصوصون .

والمعنى هنا : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ .. (٦٦) ﴾ [مريم] أى : الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة ، ويستبعد الحياة بعد الموت : ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) ﴾ [مريم] والاستفهام هنا للإنكار ، لكن هذه مسألة الردُّ عليها سَهْل مَيْسور ، فيقول تعالى :

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا (٦٧) ﴾

فـلأنْ يُعادَ الإنسانُ من شيء أهونُ من أنْ يعاد من لا شيء ؛ لذلك قال تعالى فى توضيح هذه المسألة : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] مع أن الخالق سبحانه وتعالى لا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، أو صعب وأصعب ، ولكنه يحدثنا بما نفهم وبما نعلم فى أعرافنا .

ففى عُرْفنا نحن أن تنشىء من موجود أسهل من أنْ تنشىء من عدم ، وإنْ كان فعل العبد يقوم على المعالجة ومزاولة الأسباب ، ففعْل الخالق سبحانه إنما يكون بقوله للشيء « كُنْ فيكون » .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (٢٨) ﴾ [لقمان]

ولما سُئِل الإمام على ـ كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب اللهُ الناسَ جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد .

فقوله : ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ .. (٦٧)﴾ [مريم] أى : لو تذكّر هذه الحقيقة ما كذَّب بالبعث ، وقد عولجت هذه المسألة أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس]

فلو تذكَّر خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . ثم يأتى الجواب منطقياً : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [يس]

وهنا أيضاً يكون الدليل : ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)﴾

قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ .. (٦٨)﴾ [مريم] الحشر : أن يبعثهم الله من قبورهم ، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغْرونهم بالمعصية ويُزينونها لهم .

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)﴾ [مريم] يقال : جثا يجثو فهو جَاثٍ . أى : ينزل على ركبتيه ، وهى دلالة على الذِّلَّة والانكسار والمهانة التى لا يَقْوى معها على القيام .

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾

النزع : خَلْع الشيء من أصله بشدة ، ولا يقال : نزع إلا إذا كان المنزوع متماسكاً مع المنزوع منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] كأنهم كانوا مُتمسكين به حريصين عليه .

وقوله : ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ .. (٦٩)﴾ [مريم] أى : جماعة متشايعون على رأى باطل ، ويقتنعون به ، ويسايرون أصحابه : ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾ [مريم] العتى : هو الذى بلغ القمة فى الجبروت والطغيان ، بحيث لا يقف أحد فى وجهه ، كما قلنا كذلك فى صفة الكِبَر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم] لأنه إذا جاء الكبر لا حيلة فيه ، ولا يقدر عليه أحد .

ومعلوم أن رسالات السماء لما نزلتْ على أهل الأرض كان هناك أناس يُضارون من هذه الرسالات فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، وفى مكانتهم وسيادتهم ، فرسالات الله جاءتْ لتؤكد حقّاً ، وتثبت وحدانية الله ، وسواسية الخَلْق بالنسبة لمنهج الله .

وهناك طغاة وجَبَّارون وسادة لهم عبيد ، وفى الدنيا القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والسليم والمريض ، فجاءت رسالات السماء لِتُحدث استطراقاً للعبودية .

فَمن الذى يُضَار ويَغْضَب ويعادى رسالات السماء ؟ إنهم هؤلاء الطغاة الجبارون ، أصحاب السلطة والمال والنفوذ ، ولا بُدَّ أن لهؤلاء أتباعاً يتبعونهم ويشايعونهم على باطلهم .

فإذا كان يوم القيامة ويوم الحساب ، فبمَنْ نبدأ ؟ الأنكَى أن نبدأ بهؤلاء الطغاة الجبابرة ، ونقدم هؤلاء السادة أمام تابعيهم حتى يروهم أذلاء صاغرين ، وقد كانوا فى الدنيا طغاةً متكبرين ، كذلك لنقطع أمل التابعين فى النجاة .

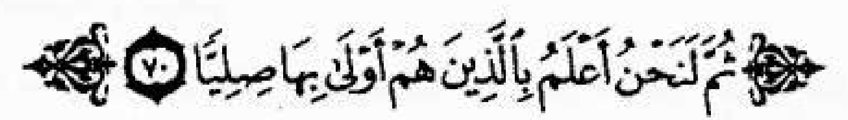
فربما ظَنُّوا أن هؤلاء الطغاة الجبابرة سيتدخلون ويدافعون عنهم ، فقد كانوا فى الدنيا خدمهم ، وكانوا تابعين لهم ومناصرين ، فإذا ما أخذناهم أولاً وبدأنا بهم ، فقد قطعنا أمل التابعين فى النجاة .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] أى : من كبارهم وطُغَاتهم ، ليرى التابعون مصارع المتبوعين ، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء ، فينقطع أملهم فى النجاة .

وفى حديث القرآن عن فرعون ، وقد بلغ قمة الطغيان والجبروت حيث ادَّعى الألوهية ، فقال عنه : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] فهو قائدهم ومقدمتهم إلى جهنم ، كما كان قائدهم إلى الضلال فى الدنيا ، فهو المعلم وهم المقلِّدون .

فعليه - إذن - وزران : وزر ضلاله فى نفسه ، ووِزْر إضلاله لقومه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

---

(١) أى : يُكفُّون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . [القاموس القويم ٢ / ٣٣٤] .

صلياً : اصطلاء واحتراقاً فى النار من صَلِىَ يصلَى : أى دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أى : طلب هو النار ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل]

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أوْلى بدخول النار أولاً ، وكأن لهم فى ذلك أولويات معروفة ؛ لأنهم سيتجادلون فى الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلقى باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾[الأحزاب]

وفى آية أخرى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ [البقرة]

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾

وهذا خطاب عام لجميع الخلْق دون استثناء ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا .. ۝٧٢﴾ [مريم] إذن : فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا ؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أى : أخْذ الماء دون أنْ تشرب منه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. (٢٣)﴾ [القصص] أي : وصل إلى الماء .

إذن : معنى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم] أي : أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون ، ستردُون النار وترونْها ؛ لأن الصراط الذى يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن جهنم .

وقد ورد فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى قال قال ﷺ : « يوضع الصراط بين ظهراني جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان[(١)] ، ثم يستجيز الناس ، فنَاجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس[(٢)] ومكدوس فيها »[(٣)] .

فإذا ما رأى المؤمن النار التى نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أى : أتى الماء وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨)﴾ [هود] أى : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربى الذى نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر[(٤)] :

وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جمامُه وَضَعْنَا عصىَّ الحاضر المتَخَيِّم[(٥)]

---

(١) حسك السعدان : قال أبو حنيفة : هي عشبة تضرب إلى الصفرة ، ولها شوك يسمى الحسك أيضاً مدحرج ، لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلا من فى رجليه خف أو نعل . [لسان العرب – مادة : حسك] .

(٢) مكدوس فى النار : مدفوع فيها . وتكدّس الإنسان : إذا دُفع من ورائه فسقط . [اللسان ـ مادة : كدس] والمنكوس : المطأطيء رأسه من الذل والهوان .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٢٨٠) ، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٥) والديلمى فى الفردوس [حديث رقم ٨٨٣٦] .

(٤) هو : زهير بن أبى سُلمى من مُضَر ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمي والخنساء ، وُلد فى بلاد « مُزَيْنة » بنواحى المدينة ، توفى عام ١٣ ق . هـ [الأعلام للزركلي ٣/ ٥٢] .

(٥) هذا بيت من معلقة زهير بن أبى سلمى ، قال الزوزنى فى شرحه : للمعلقات السبع ـ ص ١٠٥ ـ طبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م : « يقول : فلما وردت هذه الظعائن الماء وقد اشتد صفاء ما جُمع منه في الآبار والحياض عزمن على الإقامة كالحاضر المبتنى الخيمة ، والجمام هو ما اجتمع من الماء فى البئر والحوض أو غيرهما .

أى : حينمـا وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خـيامهم ، فسـاعةَ أنْ وصلوا إليه وضـربوا عنده خيامهم لم يكونوا شَـربوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أى : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .

وأصـحـاب هذا الرأى الذين يقـولون ﴿ وَارِدُهَا (٧١) ﴾ [مـريم] أى : داخلهـا يسـتدلون كـذلك بقـوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ [مريم] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى مـوضـع الماء دون الشـرب منه أو الدخول فـيه مـا قال تعـالى : ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا (٧٢) ﴾ [مريم] ولَقال : ثم يُنجِّـى الله الذين اتقوا ويدخِل الظالمين .. لكن ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ (٧٢) ﴾ [مريم] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .

فعلى الرأى الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمـة منه أن الله تعـالى يمتنُّ على عـبـاده المؤمنيـن فيُـريهم النار وتسعيرها ؛ ليعلموا فـضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجـاة من هذه النار ، كمـا قال تعـالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شىء طبيعةً تحكمه ، وهو سـبـحـانه وحـده القـادر على تعطـيل هذه الطبـيـعـة وسلبـهـا خصـائصـها .

كمـا رأينا فى قصة إبراهيم عليـه السلام ، فيكون دخـول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنهم الله منه ، فألقـوه فى النار ، وهىَ على طبيـعتها بقـانون الإحراق فيـها ، ولم يُنزل مـثلاً على النار مطراً يُطفـئها ليـوفر لهم كل أسـباب الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء في قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتى صار كل فرق كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذن : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

ثم يُنجِّى الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] الحتْم : هو الشيء الذى يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أىّ شيء ؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورنى غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد ؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق ؟

إذن : أنت لا تحتم على شيء ، إنما الذى يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شيء عن مراده .

فإنْ قلتَ : فمَن الذى حتَّم على الله ؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : ﴿مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أى : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله ﷺ : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه[1] :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ؛ لذلك تكرَّر النفى فى هذه السورة ، حتى ظنَّ البعض أنه تكرار ؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة (الكافرون) سورة الحكم[2] : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فلا ثانىَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه

---

(١) قال الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٢٦١) : « نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم ، اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره » .

(٢) هى : سورة الإخلاص . قال السيوطى فى « الإتقان فى علوم القرآن » (١/١٥٩) : « تسمَّى الأساس ، لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين » .